الالتزام الخلقي والمسئولية والجزاء في الفكر الاسلامي

أ.د / محمد عبد الصبور هلال
الأستاذ في قسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

الحمد لله رب العالمين ؛ والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البيض الميامين الذين يأتون يوم القيامة غرا محجلين •

وبعد •••

فان الالتزام الخلقي هو العنصر الأساسي للبناء الأخلاقي السليم، وزوال فكرة الالتزام يقضي على البناء الأخلاقي من أساسه ، لأن انعدام الالتزام يترتب عليه انعدام المسئولية واذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وأصبحت الحياة هملا بلا قيمة ولا وزن أو معنى •

اذا كانت هذه هي مكانة الالتزام في أي بناء أخلاقي فانه يخطيء من يدعي امكان قيام أخلاق بدون التزام كالفيلسوف الفرنسي (جوير) وأمثاله الذين حاولوا أن « يستعيضوا عن الالتزام بفكرة التقدير الفني بحيث يصح الضمير في نظرهم أداة للاعجاب بكل ما هو جميل وهم يقولون : اننا اذا استطعنا تربية الذوق الفني في النفوس فلاشك

أن اعجابنا بالجمال سيشمل اعجابنا بالأفعال الطيبة والخصال الحميدة »(١) •

ومع اعترافنا بأن هذا الرأى قد يستميل كثيرا من النفوس الا أننا نرى مع ذلك أن هناك فروقا لا نستطيع اغفالها بين ما يتصل بمحيط الأخلاق وما يتصل بمحيط الفن •

حقا ان ما هو خير جميل ، ولكن هل العكس صحيح ؟ • فهل كل ما هو جميل خير ؟ ان الشيطان قد يزين لنا أشياء تبهر أبصارنا وحواسنا بجمالها ، ولكنها لا تنطوى الا على الشر ولا تترك فى النفوس الا حسرة وألما •

ويمكننا أن نقول كذلك : ان الشعور الفنى لا يتعارض هو والعواطف ، بل أنه يعبر عنها على حين أن الشعور الأخلاقى قد يتعارض هو والعواطف ويوجهها أحيانا وجهة ربما لا تميل اليها ولا ترتضيها بطبيعتها •

وأخيرا فان الخطأ والاهمال بالنسبة للعمل الفنى قد يصدم الحس ولكن لا يتحتم لذلك أن يثير الضمير ولا ينجرف المرء عن الأخلاق لمجرد أنه أخطأ أو أهمل فى أداء عمل فنى •

★ كل هذه الملاحظات تشعرنا بأن مجال الشعور الأخلاقى غير مجال الشعور الجمالى ، فالخير الأخلاقى يتصف بتلك السلطة الملزمة

---

(١) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع • للدكتور / السيد محمد بدوى • ص ٦٨ •

التى يتقيد بها الجميع وبتلك الضرورة التى يشعر بها المرء من تنفيذ أوامر محددة بغض النظر عما تكون عليه حالة عواطفه(٢) .

وكما أخطأ القائلون : بفكرة التقدير الفنى أخطأ أيضا علماء الاجتماع وعلى رأسهم (أميل دوركيم) الذين أرجعوا الالتزام الخلقى الى سلطة المجتمع فقالوا : « ان قواعد الأخلاق تفرض على الأفراد داخل نطاق مجتمع معين ولكل شعب قواعد خلقية تسود فيه فى حقبة من الزمن ، وباسم هذه القواعد يظهر الرأى العام سخطه أو رضاه والافراد داخل نطاق المجتمع يجبرون على التزام هذه القواعد ولم ترق لهم ... فمجموعة التصورات الجمعية وهى التى نتجت عن تبلور العادات والتقاليد والمعتقدات .. الخ » هى التى تحدد ضمير المجتمع وهذا الضمير الجمعى هو الذى يتردد صداه أو ينعكس فى ضمير الفرد »(٣) .

وقد انتقد الفلاسفة هذا المذهب بقولهم : ان المثالية الأخلاقية تصبح حينئذ فى أن يجرد الانسان نفسه من كل نوازعه الداخلية ومن كل ميل أو رغبة نحو التمرد على المجتمع ونظمه ، وعلى هذا كيف نفسر ظهور المصلحين والزعماء الذين يدفعون بمجتمعاتهم خطوات نحو الأمام ويخرجون على النظم والأوضاع السائدة فى المجتمع(٤) .

وليس صحيحا أيضا ما ادعاه الفيلسوف الفرنسى « هنرى

---

(٢) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع . للدكتور / السيد محمد بدوى . ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٩ ، ٧٠ .

برجسون) من أن مصدر الالتزام الخلقى ينبعث من مصدرين فقط هما سلطة المجتمع وقوة الالهام التى تدفع بعض النفوس الى اعلاء القيم الانسانية ومحاولة الاتصال بالقوة الخالقة العليا مصدر الخير جميعه •

نعم ليس صحيحا أيضا ما ادعاه الفيلسوف الفرنسى (هنرى برجسون) من أن مصدر الالتزام الأخلاقى سلطة المجتمع وقوة الالهام التى تدفع بعض النفوس الى اعلاء القيم الانسانية لأن برجسون قد أغفل عنصرا مهما لأى التزام خلقى وهو العقل ذلكم العنصر الذى يقوم على : التدبر الحكيم وعلى حرية الاختيار ومشروعية الفعل واذا فقدت هذه الأشياء صارت فكرة الالتزام فكرة غريزية كسائر الغرائز التى تعين الانسان على حفظ كيانه وتبعد الانسان عن الأخلاق طالما سار على حسب هدى الالهام •

★ يقول الدكتور دراز : « ان مصطلحى التزام ، وأخلاق — الواردين فى هذا التحليل — يبدوان متناقضين يناقض أحدهما الأخر فمتى أصبح الالتزام قهرا شبه غريزى فانه يفقد بذلك صفته الأخلاقية وعكس ذلك : ان تلقائية الحب هى نقيض الالتزام •

والحق أن الأخلاق الصحيحة لا تجد هنا بحالها لأن الأنسان قد صور لنا على أنه لعبة فى يد قوة أية كانت فهو تارة مدفوع بالغريزة وأخرى محمول بالعاطفة ولكنه لم يكن شخصية مستقلة قادرة على المقارنة والتقويم والاختيار •

اذن فلكى تكون لدينا أخلاقية لا يكفى أن يتمثل لنا المثل الأعلى على أنه هدف لطموح متوثب محلق ولا على أنه أمر البيئة وكأنه ضريبة استبدادية بل يجب أن يمر كلاهما فى الضمير ويتعرض لعملية

اضاج حقيقية يخرج منها بمظهر جديد قـائم على مبادئ قـانونية يقـويها ويفرضها العقل .

فمادامت جاذبية المثل الأعلى ليست لها صبغة الأمر الصادر عن العقل وحتى لو لم تكن نوعا من ملاحقة السراب أو حلما واهما فانها تظل محكومة بنوع من الاحساس بالجمـال ، ولكن هذا الاحسـاس بالجمال مهما بلغ من النبل فلن يكن مبدأ أخلاقيا(٥) .

واذا كانت نظرة هذه هى نظرة بعض المذاهب الى الالتزام الخلقى فلننظر كيف يفسر الاسلام مصدر هذا الالتزام ؟

★ للاجابة على ذلك نقول : أن الاسلام يرى أن الالتزام الخلقى مرتبط بالعقيدة الاسلامية التى آمن بها المسلم عن قناعة واختيار .

فالانسان المسلم بمجرد اعتناقه لهذا الدين أصبح ملتزما باتباع الأوامر والنواهى التى تضمنها كتاب الله ــ تعالى ــ وسنة رسـوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « وليس لأحد أن يعترض بفكرة الجبر ، ذلك لأن الالتزام هنا انما مبعثه الالتزام من جانب المعتقد،فاذا تصورنا أن انسانا لم يلتزم بعقيدة ما فليس من حق أية قوة أن تلزمه حينئذ بالنزول على مقتضيات تلك العقيدة التى لم يلزم بها نفسه .. اذن الايمان فى نظر الاسلام هو معنى عميق يتغلغل فى كيان المؤمن بحيث يملك عليه كل تصرفاته ، ومتى كان الأمر كذلك فان مصدر الالتزام فى نظر الاسلام هو الوحى أو بعبـارة أخرى (الله) الموضـوع الأسمى للعقيدة التى آمن بها ذلك الانسان عن اختيار ورغبة »(٦) .

---

(٥) دستور الأخلاق فى القرآن ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٦) دراسات فى فلسفة الأخلاق ص ٣٦٥ .

أضف الى ما تقدم أن القرآن الكريم اذا قال للانسان أعمل والتزم المسلم بالعمل فانه من الناحية العملية ــ وبحكم أن الانسان هو المخلوق الوحيد الذى له ذاتية ــ يستطيع ألا يعمل أى أنه يمكنه الاختيار بين الخضوع لهذه الأوامر ودعم الخضوع لها•قال تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها »(٧) •

ومن ثم كان التزام المسلم بالطاعة والخضوع لتلك الأوامر الالهية واجتنابه لما نهى الله عنه التزاما حرا عن طواعية واختيار ، وهذا الالتزام الحر من قبل المسلم هو الأساس للبناء الأخلاقى فى الاسلام(٨) •

هذا الالتزام الأخلاقى فى الاسلام يدعونا لأن ما فى وسعنا وطاقتنا قال تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم »(٩) •

وما فوق وسعنا وطاقتنا لسنا مطالبين به•قال تعالى : « لايكلف الله نفسا الا وسعها »(١٠) ، « لا يكلف الله نفسا الا ما أتاها »(١١)•

ومما هو معلوم أن الشريعة الاسلامية ــ والأخلاق الاسلامية جزء منها ــ مبناها على الاعتدال واليسر ورفع الحرج وهذه احدى مزايا الاسلام التى تحقق صلاحيته الحياة فى كل زمان ومكان•قال

---

(٧) سورة فصلت / ٤٦ •

(٨) الاسلام والمذاهب الأخلاقية ص ٢٨٩ •

(٩) سورة التغابن ١٦ •

(١٠)سورة البقرة ٢٨٦ •

(١١) سورة الطلاق ٧ •

تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »(١٢) .

وقال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »(١٣) .

ويقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث الذى أخرجه البخارى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة ... »

وأخرج الامام أحمد عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :« يسروا ولا تعسروا واسكنوا ولا تنفروا » .

وأخرج الامام أحمد أيضا عن أبى قتادة الأعرابى أنه سمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « ان خير دينكم أيسره ان خير دينكم أيسره » .

وأخرج أبو داود عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : «ما خير رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها » .

---

(١٢) سورة البقرة ١٨٥ .
(١٣) سورة المائدة ٦ .

واذا كان الوحى المتمثل فى كتاب الله وسنة(١٤) الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو مصدر الالتزام الأساسى للأخلاق الاسلامية ، فان هناك مصدرا ثالثا له مكانته وهو الاجماع ونقصد بالاجماع : اجماع أهل الحل والعقد من المجتهدين المؤهلين لذلك •

وسلطة الاجماع يمكن أن تستقى من بعض النصوص القرآنية كقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١٥) •

وسواء قيل ان هذه الآية موجهة الى زمن الصحابة فقط أو الى جماعة المؤمنين عامة فى كل زمان ومكان(١٦) فهى تبين أن القرآن الكريم يعترف بجماعة من الناس لهم حصافة الرأى يجل عن أن يرتضى شرا أو يمنع خيرا •

---

(١٤) مما هو معلوم أن أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعتبر مصدرا ثابتا بعد قول الله ـ تعالى ـ مباشرة والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة فى قوله تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء ٨٠

كما أن القرآن الكريم يبين الاستجابة لأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على اعتبار أنه مبلغ لأمر الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » الأحزاب ٣٦ •

(١٥) سورة آل عمران ١١٠ •

(١٦) يستفاد من السنة النبوية أن هذا الامتياز ليس قاصرا على عصر الصحابة فقد لقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلتهم حتى تأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » وفى رواية أخرى :) حتى تقوم الساعة) •

وهناك استدلال مماثل فى آية أخرى تحض على الخضوع للسلطان أولى الأمر من المسلمين وهم أهل الأجتهاد ـ بعد طاعة الله فيما يقوله أو يقوله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حال الأختلاف على أمر من الأمور فيما لا نص فيه قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »(١٧) .

ومبدأ الاجماع فى التشريع الاسلامى « ليس كما يدعى بعض علماء الغرب أنه مجموعة من الآراء التعسفية تلقى جزافا ، بل أنه يعبر عن الوحدة التى تأتى عن طريق الاقناع ، وهذا الاقناع تفرضه الحقيقة على جميع العقول المستنيرة .

واذا كان العلماء يصلون فى مسألة ما الى الاجماع فما ذلك فى الحقيقة الا لأنهم يرجعون الى النصوص القرآنية والى الأحاديث النبوية محاولين أن يستخلصوا منها أى الرأى الأمثل ، واتفاقهم على رأى معين بعد التمحيص معناه أن هذا الرأى هو الصواب وعلى هذا الأساس يلتزمه المسلمون جميعا »(١٨) .

فعصمة الاجماع ليست فى حقيقة الأمر منسوبة الى المفكرين أنفسهم ولا الى هذا النص الخاص أو ذلك مما يمكن أن ترفض صحته أو يختلف تأويله وتفسيره ولكنها تكمن فى ذلك الرجوع الى مجموعة الوثائق القرآنية والنبوية الصحيحة ودراستها دراسة ناضجة وبناء عليها يؤسس ما صدر من أحكام(١٩) .

---

(١٧) سورة النساء ٥٩ .

(١٨) الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع . ص ٧٦ .

(١٩) انظر : دستور الأخلاق فى القرآن ص ٤٧ .

« مجال العقل والضمير »(٢٠)

ان مجال العقل معتبر فى كل مجالات الحيـاة على أن لا يكون فى ذلك أدنى خروج على تعاليم الاسلام لأن هذه اللطيفة الربانيـة التى أودعها الله ـ عز وجل ـ فى أكرم مخلوقاته تعد طريقا لتصور جميع الحقـائق ، حتى العقيدة لا يمـكن أن تقدح للذهن بعيـدا عن العقـل المدرك الواعى .

★ وعلى هذا الأساس « فان العقل سبب عظيم يؤدى الى تصور الأخلاق من حيث مقاصدها ومعـانيها ومن حيث شـكلها ومظهرها وكيفية تحقيق ذلك فى واقع الحياة »(٢١) .

---

(٢٠) يختلف الضمير عن العقل والفكر اختلافا واضحا وبينا : ـ

ـ فالضمير يصدر أحكامه بأسلوب مبهـم غامض ، دون أن يكون الانسان متفطنا كل التفطن الى الأسـلوب والعوامل والمقدمات التى أدت الى هذه الأحكام فكأن أحكام الضمير الهام من الله ـ تعالى ـ .

ـ أما العقل فيصدر أحكامه بناء على دراسة الأسباب والعلل وبحث الوسائل والمقدمات ، فالأحكام العقلية انما تقوم بناء على مقدمات فكرية وأدلة منطقية وحساب دقيق للأسباب والعلل .

* ويتضح الفرق بين الضمير والعقل عندما يتعارضان فى أحكامهما فكثيرا ما يفكر المرء فى أمر من الأمور ويدرسه دراسة وافية ثم يصـدر العقل حكمه بناء على هذه الدراسـة الواعية ولكن فى نفس الوقت يحس الانسان شعورا داخليا بعدم الاطمئنان الى حكم العقل هذا ويجد نفسـه غير مستريح أو واثق بهذا الحكم وهذا الشعور الداخلى هو صوت الضمير .

أما الضمير(٢٢) : فهو القوة الذاتية فى الانسان — السوى — تأمره بالخير وتحضه على فعله وتنهاه عن الشر وتجبره على فعله •

---

(٢٢) هل الضمير فطرى أو مكتسب ؟

اختلفت الأراء فى الاجابة على هذا السؤال فيرى البعض كايما نوبل كانت وجان جاك رسو ، وبتلر : أن الضمير غريزة يولد الانسان مزود به وان لم يظهر أثره فى أول حياته الا بقدر ضئيل ، فانه موجود بالقـــوة ويتحول من القوة الى الفعل كلما كبر الطفل وتقدمت حياته •

ويرى هذا البعض أن هذه الغريزة التى تسمى الضمير يستطيع بها الانسان أن يميز بين الخير والشر كما يستطيع أن يميز بين الأبيض والأسود ببصره •

* وهـذا الرأى خاطىء لأنه يترتب عليـه أن لا حاجة الى التعليم والتربية لأن الضمير يكفى عن كل ذلك • ومما يدل على بطلان هذا الرأى أيضا اختلاف ضمائر الناس تبعا لاختلاف أشخاصهم ، بل أن الشخص الواحد قد يختلف ضميره تبعا لاختلاف الظروف والأحـوال •

* ويرى فريق آخر على رأسهم أوجست كونت ، ودور كيم ، وجون لوك : أن الضمير مكتسب من البيئة فالانسان يولد وليس عنده شىء يسمى الضمير ، ولا يخفى فساد هذا الرأى • وهناك فريق ثالث على رأســـهم (بلنكيس)ونيتشه لا يعترفون بوجود الضمير لا فطرى ولا مكتسب ويرون أن الانسان عليه أن يصل الى غايته دون قيود حتى ولو كان ذلك على حساب جماعة البشر وهذا الرأى أيضا بين البطلان •• أما الاسلام فانه يعتـرف بوجود الضمير فى مثل قول الله تعالى «ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه » • وغير ذلك من آيات • هذا الضمير فى الاسلام استعداد فطرى يولد به الانسان (ويبلور هذا الاستعداد ويظهر آثره بالخير والتهذيب عن طريق البيئة الصالحة فهو ليس قوة فطرية غريزية يولد بها الانســان وليس قوة مكتسبة بلا استعداد سابق) فى العقيدة الاسلامية ص ١٨٥ •

هذا الضمير لدى المسلم « مرهف وحساس دائم اليقظة بحيث يظل مؤثرا تأثيرا ايجابيا يدفع الى النافع من الأعمال ويردع عن الأذى والضرر حتى أن الأخلاق جميعا تستند أول ما تستند الى الضمير اليقظ الذى يعمر النفس المؤمنة »(٢٣) .

واذا كان الضمير مشلولا معطلا أو أنه قد سيم الفساد والالتواء فلسوف يؤول الأمر بالانسان الى طراز من الخلقة البشرية الشوهاء.

وشأن البشرية التى تحيا بغير ضمير واضح مكشوف لكل ذى عقل تكون قد خبت فيها جذوة الوازع الوجدانى حتى باتت منحرفة تقيس الأمور باعوجاج لا يعرف العدل والاستقامة .. ذلكم هو شأن البشرية التى فقدت الضمير الوازع النقى حتى انقلبت بها الحال الى تعاسة وشقوة(٢٤) .

وبعد هذا البيان عن خطورة الضمير فانه ينبغى أن نبين كذلك أنه لا سبيل بغير الايمان الصحيح لاستحياء الضمير وتزكية الأيمان الصحيح هو الذى ينشىء الضمير الظاهر الزكى .

ويرادف الايمان الاصطلاح الاسلامى المشهور وهو تقوى الله ، وهذا يعنى الخوف من الله ورقابته فى السر والعلن ، وذلك شعور وجدانى عميق ضارب فى أغوار النفس الانسانية لدى الانسان المؤمن.

وليس كالانسان المؤمن المتدين تدينا صحيحا من حيث اليقظة الواعية التى يعيشها ضميره .

وقصة ماعز ابن مالك مثال حى على هذا الضمير الراقى الذى

---

(٢٣) دراسات فى الثقافة ص ٣٣٢ .

(٢٤) دراسات فى الثقافة ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

نشأ فى ظل الاسلام وتزكى بقبس الأيمان الذى يملأ النفس صفاء ورهافة واخلاصا فقد أخرج أبو داود فى سننه عن عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : جاء ماعز بن مالك الى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاعترف بالزنا مرتين فطرده ، ثم جاء فاعترف بالزنا مرتين فقال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « شهدت على نفسك أربع مرات ، اذهبوا به فارجموه » •

وأخرج أبو داود أيضا أن امرأة من غامد أتت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت : أنى قد فجرت فقال : « ارجعى » فرجعت فلما كان الغد أتته فقال : لعلك تردنى كما رددت ماعز ابن مالك ، فوالله انى لحبلى ، فقال لها : « ارجعى » فرجعت • فلما كان الغد أتته فقال لها : (ارجعى حتى تادى) فرجعت فلما ولدت أتته بالصبى فقالت : هذا قد ولدته • فقال لها : « ارجعى فارضعيه حتى تفطميه » فجاءت به وقد فطمته وفى يده شىء يأكله ، فأمر بالصبى فدفع الى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها وأمر بها فرجمت وكان خالد فيمن يرجمها فرجمها بحجر فوقعت قطرة من دمها على وجنتيه فسبها فقال له النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ « مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » وأمر بها فصلى عليها ودفنت •

★ تلك هى شعلة الايمان تستضىء بها النفس وتزكو لتكون دائمة الصحو واليقظة ولتكون طاهرة عالية لا تنحدر الى الدنس الا فى غمرة الضعف وذلك هو الايمان وأثره فى استحياء الضمير وتقويته وجعله يقظا لا يغيب ولا يتبلد(٢٥) •

---

(٢٥) دراسات فى الثقافة ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ •

« المسئولية الأخلاقية »

المسئولية الأخلاقية تعد نتيجة طبيعية للالتزام الأخلاقى لأن مدى المسئولية يتحدد بمدى الالتزام الى ألزم الانسان به نفسه فاذا وجدت الأولى وجدت الثانية واذا انتفت الأولى انتفت الثانية •

وتعنى بالمسئولية : « تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الايجابية والسلبية أمام الله فى الدرجة الأولى وأمام ضميره فى الدرجة الثانية وأمام المجتمع فى الدرجة الثالثة »(٢٦) •

هذه المسئولية اذا كانت بعض المذاهب الأخلاقية قد قسمتها الى ثلاث أنواع منفصلة من المسئولية : هى المسئولية الدينية والمسئولية الاجتماعية والمسئولية الأخلاقية ، لكنها فى نظر الاسلام مسئولية أخلاقية متعددة الجوانب لأن الاسلام يستوعب فى نظامه الأخلاقى كل هذه الجوانب •

فالمسلم يتحمل مسئوليته عن كل أعماله فى حياته مع الله أو مع نفسه أو مع الناس وتتفاوت هذه المسئولية بقدر تفاوت المكانة المقررة للمسئول فى المجتمع فهى مسئولية تتراوح بين تولى السلطة وبين رعاية الأولاد والزوجة ولهذا قال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث الشامل •• الذى رواه البخارى : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده ، وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل

---

(٢٦) راجع الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام للاستاذ مقداد بالجن •

راع على مـال سـيده ، وهو مسـئول عنه الا فكلـكم راع وكلكم مسـئول عن رعيتـه » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لاتزال قدما ابن آدم عنـد ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم » .

فكل انسان فى الاسلام مسئول ولايتجرد من المسئولية الا من ذكرهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يسـتيقظ وعن الصـغير حتى يكبر وعن المجنـون حتى يعقـل أو حتى يفيـق » .

★ وهذا يقتضى توفر عدة شروط فى الشخص المسئول :

شروط المسـئولية الأخـلاقية :

★ ان مسـئولية الانسان الحقيقية عن كل عمـل يقوم به لابد فيهـا من شروط نذكر منهـا :

١ ـ العقل السـليم :

لقد خلق الله تعالى الانسان وميزه عن بقية الكائنات الحية بالعقل وهو أمر ضرورى ليظل الانسان متميزا عن بقية الكائنات الحية .

والقرآن الكريم ذكرت فيه آيات متعددة تخاطب فى الانسـان عقله كقول الله تعالى « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيـه تسيمون ينبت لـكم به الزرع والزيتون والنخيـل والأعناب ومن كل الثمـرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسـخر

لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون »(٢٧) •

★ هذه الآيات — وأمثالها كثير فى كتاب الله تعالى — تدعو الى تنشيط العقول من عقالها لتتبين عطاء الله للانسان الذى ساقه اليه فى شكل أداة أو آيات والا فهو مسئول لأنه عاقل •

فاذا فقد الانسان عقله فلا مسئولية عليه — كما سبق — ولا اعتبار لأى عمل من الأعمال يقوم به لأنه أصبح مثل الحيوان الأعجم واذا قال — صلى الله عليه وسلم — فى الحديث السابق الذى رواه الامام أحمد : « رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المجنون حتى يفيق » •

فلا مسئولية على مجنون أو مكره أو عمن كان دون البلوغ •

لكن يجب أن يعلم أن المراد برفع القلم عن الصغير انما هو رفع قلم المؤاخذة أما قلم الثواب فلا يرفع لأن الله — عز وجل — يكتب لهم ثواب أعمالهم الصالحة اذا هم فعلوها بارادتهم ولذلكم أمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أولياء الأطفال الصغار أن يأمروا أولادهم بالصلاة لسبع ويضربوهم عليها لعشر وأن يفرقوا بينهم فى المضاجع • قال — صلى الله عليه وسلم — فيما رواه الامام أحمد وأبو داود : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم فى المضاجع » •

ولم يقتصر الأمر على الصلاة فقط وانما نجد أن الشرع قد

---

(٢٧) سورة النحل الآيات ١٠ — ١٣ •

أمرهم أن يأمروهم بفعل الخيرات وأن ينهوهم عن فعل المعاصى • قال تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمـانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لـكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم »(٢٨) •

٣ ــ الارادة الحـرة :

لا تتحقق المسئولية فى الاسلام الا اذا كان فعل الانسان أو قوله ناتجـا عن ارادة حـرة دون اكراه أو اضـطرار • قال تعـالى : « لا يؤاخذكم الله باللغـو فى أيمـانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلـوبكم »(٢٩) •

وقال تعـالى : « لا يؤاخـذكم الله باللغـو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقـدتم الايمان »(٣٠) •

وعلى ذلك فلا يكون الأنسان مسئولا عن سلوكه فى حالة الأكراه أو الأضطرار قال تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحيـاة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعـد اكراههن غفـور رحيم »(٣١) •

---

(٢٨) سـورة النـور ٥٨ •
(٢٩) سورة البقرة ٢٢٥ •
(٣٠) سورة المـائدة ٨٩ •
(٣١) سورة النـور ٣٣ •

وقال تعالى : « من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم »(٣٢) .

ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الذى رواه ابن عباس وأخرجه ابن ماجه والبيهقى : « ان الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

لأن الارادة الانسانية لا تكون تامة الحرية فى حالة الاكراه ، وأضاف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى حالة الاكراه فى الحديث السابق النسيان والخطأ الغير متعمد اذا رأينا القرآن الكريم يذكر : « هذه المسألة فى شكل طلب عدم المؤاخذة فى قول الله تعالى: « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا »(٣٣) .

ولو لم يكن الأمر محل اجابة لما كان للطلب معنى .. »(٣٤) .

ومما هو معلوم ان العمل الارادى منه ما هو ايجابى ومنه ما هو سلبى فالايجابى منه هو « ما يصدر به عن الانسان عمل ظاهر كانفاق فى الخير وجهاد فى سبيل الله ومعونة بطاقة جسدية وشفاعة حسنة وتعليم الجاهلين ما ينفعهم فى دينهم وما ينفعهم فى دنياهم من غير شر ونحو ذلك .

والسلبى هو ما يتعمد فيه الانسان ترك العمل مع قدرته عليه

---

(٣٢) سورة النحل ١٠٦ .

(٣٣) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٣٤) دراسات فى فلسفة الأخلاق ص ٣٧١ .

ولذلك يثاب الانسان على ترك المحرمات ، اذا تركها بارادته ناويا طاعة الله فى ذلك ، مع أنه لم يفعل شيئا ظاهرا،انما فعل فعلا سلبيا، ويعاقب على ترك الواجبات لأن هذا الترك عمل سلبى تجاه أمر واجب التنفيذ •

وبناء على ذلك فمن رأى انسانا غافلا يمشى الى هاوية فلم ينبهه ، ولم يعمل أى شىء يرده به عن السقوط مع قدرته على ذلك وتركه حتى سقط فانه يعتبر فى مفاهيم الشرع جانيا ومسئولا عن عمله السلبى الذى عمله ويعاقب عند الله على ذلك ، واذلك كان الساكت عن الحق شيطانا أخرس لأنه كتم ما يجب عليه بيانه • قال تعالى فى شأن من يكتم الشهادة : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه اثم قلبه والله بما تعملون عليم »(٣٥) •

فجعل الحق كتم الشهادة من قبيل العمل الذى تأثم به القلوب مع أنه سلوك سلبى تجاه عمل كان يجب عليه أن يقوم به •

والمسئولية عن الأعمال السلبية ملاحظ فيها أن الارادة الانسانية ذات وساطة ما فى وجودها ؛ فمن استطاع أن يكف شرا فلم يفعل فان لارادته وساطة ما فى وقوع الشر »(٣٦) •

٣ ــ الطابع الشخصى فى المسئولية :

من الواضح أن المسئولية عن السلوك مسئولية شخصية والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جدا نذكر منها قول الله تعالى : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا

---

(٣٥) سورة البقرة ٢٨٣ •

(٣٦) الأخلاق الاسلامية وأسسها ص ١١٢ •

يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٣٧) •

وقال تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٣٨) •

وقال تعالى : « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما »(٣٩) •

وقال تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا »(٤٠) •

وقال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « اعملوا لأنفسكم فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا » •

وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى نهاية الحديث الذى رواه الامام مسلم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ : « ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » •

فالاسلام يقرر بوضوح تام أن الفرد ليس مسئولا الا عن سلوكه الشخصى فلا يتحمل أحد وزرا من عمل غيره دون أن يكون له فيه نصيب من كسب ما •

---

(٣٧) سورة الاسراء ١٣ ــ ١٥ •

(٣٨) سورة البقرة ٢٨٦ •

(٣٩) سورة النساء ١١١ •

(٤٠) سورة لقمان ٣٣ •

ولا ينال من عمل غيره دون أن يكون له فيه نصيب من كسب ما ، وهذا ما يتوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الالهية • قال تعالى : « قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذن لظالمون »(٤١) •

ولا يعترض على المسئولية الشخصية فى الاسلام بأنه قد وردت حالتان قد خرجتا على الطابع الشخصى للمسئولية •

الحالة الأولى :

ان بعض المذنبين يتحملون أوزارا مع أوزار غيرهم • قال تعالى: فى حق الضالين الذين يتحملون أوزارهم كاملة وأوزار الذين تأثروا بهم واستجابوا لاضلالهم من غير أن ينقص من أوزارهم شىء :

« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون »(٤٢) •

وقال الله تعالى : حاكيا مقالة بعض أهل النار :

« وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا »(٤٣) •

ومن ذلكم أيضا قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى

---

(٤١) سورة يوسف ٧٨ ، ٧٩ •

(٤٢) سورة النحل ٢٥ •

(٤٣) سورة الأحزاب ٦٧ ، ٦٨ •

الحديث الذى رواه الامام مسلم عن جرير بن عبد الله البجلى :

« من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء • ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » •

الحالة الثانية :

وردت نصوص أخرى تبين أن بعض المحسنين ينالون ثواب أعمالهم كاملا يوم القيامة ، وثوابا يعادل ثواب من تبعهم فى هذا العمل الذى سنوه ولكن بشرط أن يكونوا مؤمنين دليل ذلكم قول الله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء »(٤٤) •

وقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الحديث السابق : « من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء •• » •

نعم لا يعترض على المسئولية الشخصية فى الاسلام بهاتين الحالتين لأن النصوص التى تبين أن بعض المسيئين يتحملون أوزارهم وأوزار غيرهم ممن اتبعوهم باعتبار أن لهم كسبا ما فى وجود هذا الاثم فالمسئولية فى هذه الحالة من وجهين :

« مسئولية فردية من جهة ومسئولية غيرية من جهة أخرى وهى

---

(٤٤) سورة الطور ٢١ •

المسئولية الناتجة عن اضلال الانسان غيره بارائه وتوجيهاته فينتج الآخر أراءه وطريقته فهو المسئول فى هذه الحالة عن اضلاله كسلوك ناتج عن نفسه ، ومسئول أيضا عن حياة الآخر نتيجة تأثره بالأول مسئول فى هذه الحالة عن ذنوب الآخر كمسئولية الآخر عن هذه الذنوب ولكن مسئولية كل واحد من جهة أخرى ، فالأول يتحمل تبعة اضلاله والآخر يتحمل تبعة أتباعه الضلال وفعله الجرائم •

وتحمل الانسان مسئولية سلوك الغير فى هذا الاطار ليس فيها أي غرابة فى التفكير الأخلاقى ذلك أن الانسان ليس مسئولا فقط عن فعل الشر بل هو أيضا مسئول عن دفع الشر لأن هدف الأخلاق تحقيق السعادة والسعادة لا تتحقق الا بانقاذ الانسان من الشر أولا وتحقيق الخير ثانيا »(٤٥) •

★ يقول الدكتور دراز : « ان الأمر ليذهب الى أبعد من هذا، عما قدمت أيدينا فحسب بل سوف نسأل أيضا بصورة ما عن تصرفات الآخرين فندن مسئولون عن انحراف مسلك أقراننا حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بجميع الوسائل المشروعة التى نطبقها لنمنعهم من الاساءة وشبيه بهذا أن العمل الاجتماعى السلبى أو عدم المبالاة تجرم بدرجة العمل الايجابى فالامتناع هو المشاركة السلبية فى الجريمة •

وان القرآن الكريم ليحدثنا أن شعبا قديما قد تعرض للعنة على ألسنة الأنبياء وكان كل ذنبه حتى يستحق هذه اللعنة أن المجتمع لم

---

(٤٥) الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام الاستاذ مقداد بالجن •

ينكر على بعض أعضائه فعلهم للشر .. فقال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »(٤٦) .

وبهذا نرى أن المسئولية الفردية على هذه الدرجة من الامتداد تتاخم بل وتكاد تندمج فى المسئولية الاجتماعية(٤٧) .

وأما النصوص التى تثبت أن بعض المحسنين ينالون ثواب أعمالهم كاملا وثواب يعادل ثواب كل من تبعه الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شىء على أعمالهم فان ذلك عائد الى فضل الله — عز وجل — وجوده على عباده المؤمنين ولذلكم قال الله تعالى « وما ألتناهم من عملهم من شىء »(٤٨) .

وقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الحديث الذى رواه الامام مسلم عن أبى هريرة — رضى الله عنه : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاثة أشياء صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

٤ — العلم بالعمل الذى يعمله وبما يؤدى اليه :

لكى يكون الانسان مسئولا عن عمله يجب أن يكون واعيا بذاته ومقاصده من أفعاله وما سينجم عنها والا فلا معنى لأن يكون مسئولا

---

(٤٦) سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩ .

(٤٧) دستور الاخلاق فى القرآن ص ١٥٥ .

(٤٨) سورة الطور ٢١ .

عن تصرفاته ولهذا لم يجعل الاسلام مسئولية على الأطفال الصغار وعلى النائم والمجنون كما سبق أن ذكرنا فى الحديث المشهور .

كما لم يجعل الاسلام مسئولية على السكران حين يرتكب عملا وهو فاقد الشعور وان كان مؤخذا على العمل الذى كان سببا فى سكره،ومؤاخذا من جهة ثانية على عدم احتياطه حال فقده لشعوره.

طريق العلم بالعمل :

يتأتى العلم بفضائل الأخلاق ورذائلها من طريقين :

الطريق الأول :

داخلى وهو ما أودعه الخالق ـ عز وجل ـ فى القلوب والعقول من قانون فطرى يستطيع المرء من خلاله ـ على تفاوت بين الأفراد ـ أن يحس بطائفة من الأخلاق الفاضلة كالصدق والحياء والمروءة والشجاعة وغير ذلك كما يحس أيضا بطائفة من الأخلاق السيئة كالكذب والنفاق والجبن وغير ذلك ، لذا فان العدالة الربانية تتولى الجزاء عليه ان عاجلا وان آجلا وتعتبر المسئولية بالنسبة اليه مسئولية تامة .

فمن أمثلة ذلك الظلم الذى يلتقى جميع الناس على ادراكه كما تدركه أمم من البهائم غير العاقلة ، ولذلك فان الله تبارك وتعالى يفرض على جميع الظالمين يوم القيامة أن يؤدوا الحقوق الى أهلها سواء أبلغهم تشريع ربانى أو لم يبلغهم ذلك لأن أحدا لا يجهل قبح الظلم مهما ضعفت مداركه الا أن يكون لمجنون مطبق(٤٩) .

---

(٤٩) الأخلاق الاسلامية وأسسها ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

روى الامام مسلم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال :

« لتؤدون الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشـــاة القرناء » •

وروى الامـــام البخارى عن أبى هـــريرة ــ رضى الله عنـــه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال :

« من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، ان كان له عمل صالح أخذ منـــه بقدر مظلمته وان لم تكن له حســـنات أخذ من سيئات صـــاحبه فحمل عليـــه » •

الطريق الثـــانى :

خارجى : وهو الاعلام بواسطة الرسل عليهم السلام الوســـطاء بين الله وبين خلقه ، اصطفاهم للقيام بمهمة التبليغ ، ولم يترك عباده لشعورهم الفطرى وحده ، لأن الاســـتطاعة الفطرية قد تظـــل راكدة نائمـــة فهى بحـــاجة الى من يحركها ويوقظهـــا ويبصرها ويهـــديها الى ســـبيل كمالها •

ولو لم ينزل الله الشرائع لكان للناس أن يحتجوا بجهلهم أو بغفلتهم وعدم انتباههم ولكان احتجاجهم هذا مقبولا فى محكمة العدل الربانية•

وفى بيان ما ألزم الله به نفسه من اعلام عبادة شرائعه لهم يقول تبارك وتعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٥٠) ويقول

---

(٥٠) سورة الاسراء ١٥ •

جل شأنه : « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هـداهم حتى يبين لهم ما يتقون ان الله بكل شيء عليم »(٥١) ٠

ويقول الحق جل وعلا : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلهـا ظـالمون »(٥٢) ٠

وفى بيان قطع أعذار الناس حتى لا يعتذروا بالجهل أو بالغفلة أو بمواريث البيئة(٣٥) ، يقول الله تبارك وتعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيمـا »(٥٤) ٠

★ هذه هى أهم شروط المسئولية فاذا توفرت هذه الشروط فانه لا مفر للانسان من مواجهة التبعات التى تترتب على مقارنة المخالفات الشرعية باعتباره كائنا مسـئولا والتبعات المترتبة هى بمثابة جـزاء عادل يستحقه المسئول المقصر(٥٥) ٠

---

(٥١) سـورة التوبة ١١٥ ٠

(٥٢) سورة القصص ٥٩ ٠

(٥٣) الأخلاق الاسلامية وأسسها ص ١٢٣ ، ١٢٤ ٠

(٥٤) سورة النسـاء ١٦٥ ٠

(٥٥) دراسات فى الثقافة الاسلامية ص ٣٣٩ ٠

« الجـــزاءات »

الجزاء يعد نتيجة طبيعية للمسئولية والا فلا معنى للمسـئولية اذا لم يترتب عليها ثواب يشجع المحسن ، وعتاب يردع المخالف .

فكأن الجزاء والعدالة يقتضى أحدهما الآخر ويطلبه .

والجزاء يعرف فى اللغة : بأنه المكافأة على العمل .

وفى الاصطلاح : يعرف بأنه الجزاء أو المكافأة ثوابا على طاعة الالتزام المسئول عنه والجزاء عقابا على المخالفة .

وكلمة الجزاء وردت فى القرآن الـكريم مستعملة فى الثـواب على الطاعة ... قال تعالى : « واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »(٥٦) .

وقال تعالى : « ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا جنـات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـا وذلك جزاء من تزكى »(٥٧) .

كما وردت أيضا مستعملة فى العقاب على المعصية والانحراف. قال تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيهـا وغضب الله عليه ولعنة وأعد له عذابا عظيما »(٥٨) .

وقال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم »(٥٩) .

---

(٥٦) سورة الكهف ٨٨ .

(٥٧) سـورة طـه ٧٥ ، ٧٦ .

(٥٨) سورة النسـاء ٩٣ .

(٥٩) سورة المـائدة ٣٨ .

أنــواع الجــزاء :

★ الجزاء له أنواع عدة نذكر منها ما يأتى :

١ ــ الجزاء الأخلاقى أو الوجدانى :

الجزاء الأخلاقى هو الاحساس والشــعور الذى نحس به فى أعماق قلوبنا بالغبطة والارتياح بعد كل فعل نعتقد أنه فعــل حسن أو خير ، والحسرة والكآبة بعد كل فعل نعتقد أنه فعل شر أو قبيح •

وقد يكون هذا المعنى هو ما بينه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى قوله : « البر حسن الخلق والاثم ما جــاء فى نفسك وكرهت أن يطلــع عليه الناس » •

وفى رواية أخرى : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب والاثم ما جــاء فى النفس وتردد فى الصــدر وان أفتــاك النــاس وأفتوك » •

وفى رواية أخرى : « البر ما انشرح له صدرك والاثم ما جاء فى صدرك وان افتاك عنه الناس » •

★ هذا الجزاء الأخلاقى المتمثل فى سلطان الضمير لا يستهان به لأنه يعتبر محكمة عادلة « ولهذا قال علماء النفس ان المجرمين تحت عقاب مستمر وان نجوا من العقاب القانونى أو انتهوا منه ، ذلك أن المجرم لا يخلو من احدى الحالتين الآتيتين لأنه اما أنه لم تنكشف جريمته بعد ، أو عرفت لدى الآخرين •

★ ففى الحالة الأولى تعتريه ثلاث حالات وجدانية مؤلمة :

الأولى : حالة الخوف والقلق المستمرين من انكشاف الجريمــة

ولهذا فهم يتحرجون عادة من الحديث حول الموضوعات التى ارتكبوا فيها الجرائم والآثام خوفا من الانكشاف •

والحالة الثانية : هى تأنيب ضمير مستمر وأحساس بذنب يخدش وجدان المجرم وشعوره باشمئزاز من نفسه وذاته وهنا تعترى هؤلاء دائما حالات نفسية كئيبة لا تنفرج سريرتهم ولاسيما فى حالات التذكر لتلك الجرائم التى ارتكبوها •

والحالة الثالثة :

انه يفقد أهليته الاجتماعية من حب ومودة •• الخ • فى شعوره الخاص وان لم يفقدها فى المجتمع ، ذلك أنه يشعر عندما توجه اليه تقديرات الناس أنه لم يعد ذلك الشخص الذى يستحق تلك التقديرات، وكان يناله عن تقدير لا يوجه اليه ومن ثم يفقد ذلك الاحساس الطيب بخبرته شخصيته فى نفسه الذى كان يحس به من قبل ويصبح غريبا بين أهله وأحبابه فى داخل شعوره الباطنى •

هذا فى حالة اخفاء الجريمة ، أما فى حالة انكشاف الجريمة فتستمر معه الحالتان الأخيرتان وهما تأنيب الضمير وشعوره بفقد شخصيته فى المجتمع وأكثر من ذلك فانه يفقد شخصيته عندئذ فى المجتمع ظاهرا وباطنا ولا يجد ذلك التقدير والاحترام الموجهين اليه من الناس بذلك يصبح غريبا بين أهله وعشيرته •

وبخلاف هذه الحالات حالة انسان لم يرتكب الجرائم والآثام فان صفاء وجدانه يجعله يشعر بالابتسامة الداخلية ويشعر فى قرارة نفسه بطريقة لا شعورية وبصفة دائمة بالخيرية الذاتية والسرور المستمر ، ومن ثم يؤثر هذا أو ذلك فى سماته الشخصية الظاهرية

وشتان بين الوجدانيين وبين الشخصيتين المجرمة والشخصية الخيرة وصدق الله العظيم اذ قال : « سيماهم فى وجوههم »(٦٠) •

فان الانسان اذا كان مجرما فاسدا يظهر ذلك فى سيماه ووجهه فيصبح مظلما قائمة واجما عبوسا ، واذا كان خيرا يصبح وجهة باسما ناضرا وصدق الله العظيم اذ يقول فى وصف هؤلاء وأولئك :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة مثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٦١) •

وقال تعالى : « يعرف المجرمون بسيماهم »(٦٢) « كما يعرف الصالحون بسيماهم » «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود»(٦٣)

هذه السمة تظهر فى الدنيا كما تظهر يوم القيامة • قال تعالى: « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة »(٦٤) •

وقال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث الذى رواه الامام مسلم « ما أسر أحد سريرة الا كساه الله جلدا بها ان خيرا فخير وان شرا فشر » •

---

(٦٠) سورة الفتح ٢٩ •

(٦١) سورة يونس ٢٦ ، ٢٧ •

(٦٢) سورة الرحمن ٤١ •

(٦٣) سورة الفتح ٢٩ •

(٦٤) سورة عبس ٣٨ ــ ٤١ •

وهذه حقيقة يؤيدها علماء النفس أيضا(٦٥) .

لكن لما كان هذا الجزاء المتمثل فى سلطان الضمير قد تختلف درجته من فرد الى آخر بحسب ظروف الوراثة والتربية الأخلاقية وصفاء الضمير ونظافته كان جزاء الضمير غير كاف الا عند من يتميزون بالنبل والانسانية .

أما الذين ماتت ضمائرهم وتمرست نفوسهم القاسية على الاثم والرذيلة فان جزاء الضمير لا يكون كافيا ولا يصلح كمبدأ عام وقاعدة كلية مادام هناك من يحيا بغير ضمير .

٢ ــ الجزاء القانونى :

يقصد بالجزاء القانونى : مجموعة من القواعد العامة التى تصلح عليها الجماعة لتنظيم سلوك الأفراد فى المجتمع .

هذا النوع من الجزاء لا يستهدف الا الردع والتحذير عن ارتكاب الجرائم لذا فان هذا الجزاء لا ينص الا على عقاب المسيئين فقط دون أن يقرر ثوابا للمحسنين الطائعين .

هذا النوع من الجزاء وان كانت له قيمة فى ردع الكثير من المخالفين الذين يعتدون على حقوق الأفراد والجماعات الا أن هذا النوع من الجزاء يعيبه ما يأتى :

(أ) أن سلطانه خارجى « محض » ولا سلطان له على الروح

---

(٦٥) راجع الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام .

أو الضمير وأنه من السهل على من تجرد من سلطان الدين والأخلاق أن يستهين بأمره لاسيما اذا أتيحت له القدرة على الافلات من يده بأى وسيلة ، بل كثيرا ما كان حماة القانون أنفسهم أول المعطلين له المتفادين لسلطانه والمنتهكين لحرمة استنادا الى ما فى أيديهم من من سلطة ترد عنهم بأس غيرهم وكم سمعنا من يردد هذه العبارة « القوانين خلقت للضعفاء »(٦٦) .

(ب) أن هذا القانون « لا ينص على عقوبة الكذب والنفاق والغيبة وعقوق الوالدين وينص صراحة على أنه لا عقوبة بلا نص.. وبعض القوانين تحمى الزنا والالواط باسم حرية الانسان وتصرفاته وفى نفس الوقت تحمى أقطاب التفرقة العنصرية والأفراد الذين يستغلون الجماعات وينهبون أقوات الشعوب وثرواتها ونعاقب من يسير بسيارته أكثر من السرعة المسموح بها أو يضىء نورها المبهر وان لم يلحق ضررا بأحد(٦٧) .

(ج) ان هذا القانون الذى يضعه الأفراد لا يكون وحده كافيا لتقويم السلوك الانسانى لأنه كثيرا «ما توجد أخطاء فى القانون نفسه تساعد المجرم على تغيير خطته الاجرامية ليتكيف مع القانون نفسه ، بل قد يكون الجزاء القانونى — فى كثير من الأحيان — سببا فى مزيد من افساد النفوس واعوجاجها بدلا من تقويمها واصلاحها، فقد يدخل السجن نشال سرق حافظة نقود فيلتقى هناك بمن يدربه

---

(٦٦) الاسلام والمذاهب الاخلاقية ص ٢٠٥ .

(٦٧) فلسفة الأخلاق فى الاسلام للاستاذ محمد جواد مغنية ص ١١٢ ، ١١٣ .

ويعلمه لخرج متخصصا فى سرقة الخزائن والبنوك كما أننا نرى كثيرا كم يستطيع المجرم أن يفلت من الجزاء القانونى »(٦٨) بأى حيلة من الحيل أو بأى وسيلة من الوسائل كأن يخفى جريمته أو يبحث عن ثغرة من ثغرات هذا القانون •

(د) ان هذا القانون ــ كما قلنا سابقا ــ لم يحتفظ من الطابع الجزائى المزدوجى الثوابى والعقابى فقط « وكأنه يعتبر أن عيش البعض آمنين من سطوة الغير عليهم ومؤاخذة القانون لهم بسد مسد الثواب بالنسبة لهم »(٦٩) •

٣ ــ الجزاء الاجتماعى :

يقصد بالجزاء الاجتماعى « حب الناس وولاؤهم وتقديرهم واحترامهم لمن يعمل لخدمة الانسانية جمعاء أو لخدمة بلده وأبناء وطنه أما من أساء وخادع ورواغ فجزاؤهم عندهم السخط والمقت والازدراء والاحتقار »(٧٠) •

والمتأمل فى هذا التعريف يجد أن الجزاء الاجتماعى يعتبر جزاء أدبيا والجزاء الأدبى حض الاسلام ودعا اليه لذا فان الاسلام قد دعا الى عدم الاعتداد بشخصية الفاسق وعدم قبول شهادته • قال تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء

---

(٦٨) الاسلام والمذاهب الأخلاقية ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٦٩) الاسلام والمذاهب الأخلاقية ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٧٠) فلسفة الأخلاق ص ١١٣ •

فأجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون »(٧١) .

وليس هذا قاصرا على الشهادة فقط وانما يشمل كل عمل من الأعمال وكل شأن من شئون المسلمين ، وهذا فى حد ذاته ليس أمرا سهلا على الفاسق لأنه بذلك يفقد شخصيته الأدبية فى المجتمع .

وفى مقابل عدم الاعتداد بشخصية الفاسق وعدم قبول شهادته « فان الاسلام قد أمر بدفع القيمة الأدبية للصالحين ورفع درجاتهم بحسب درجة أخلاقهم فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « انزلوا الناس منازلهم من الخير والشر » .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ان الهدى الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » .

ثم دعا الاسلام الى مصاحبة ذوى الأخلاق الحسنة ومجانبة ذوى الأخلاق السيئة(٧٢) ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما أن يهديك واما أن تبتاع منه واما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك ، واما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

هذا والجزاء الاجتماعى لا يقتصر على الجزاء الأدبى لأن هذا

---

(٧١) سورة النور ٤ .

(٧٢) انظر : الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام .

الجزاء قد يكون ماديا كالعقوبات المختلفة بحسب الجرائم المرتكبة التى أعطى الاسلام للمجتمع حق تنفيذها فى المجرم مثل العقوبة فى السرقة • قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم »(٧٣) •

والعقوبة فى الزنا : •• قال تعالى : « والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »(٧٤) •

والعقوبة فى الحرابة • قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(٧٥) •

كان هذا الجزاء حقا للمجتمع « لأن ضرر الجريمة لاحق بالمجتمع والجريمة مرض فى جسم المجتمع فاذا لم يعالجه المجتمع فسينتشر فيه يوما بعد يوم حتى اذا عمه ذلك يستعصى على العلاج ويكون سببا لهلاك الجميع »(٧٦) •

لكن هذا النوع من الجزاء لا يصلح الا فى مجتمع فاضل يعرف

---

(٧٣) سورة المائدة •

(٧٤) سورة النور ٢ •

(٧٥) سورة المائدة ٣٣ •

(٧٦) الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام •

أن نتيجة الأخلاق الحسنة السعادة فى الدارين ، ونتيجة الأخلاق السيئة التعاسة والشقاوة فى الدارين أيضا :

كما أن سلطان الجزاء الاجتماعى ـ اذا لم يكن له وازع دينى ـ « لا يصلح كوسيلة كافية لتقويم النفوس واصلاحها ولا هو بالحكم العادل الذى يصدر حكمه منزها عن الأهواء بعيدا عن الأخطاء فكم رأينا أناسا صفقت لهم الجماهير وهتفت بحياتهم ثم اتضح بعد ذلك أنهم ما كانوا يستحقون الا اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين وعلى العكس من ذلك فكم حاكم الرأى العام أناسا وظلمهم وأسخط عليهم الجماهير ثم اتضح بعد ذك أنهم كانوا أجدر الناس بالثناء وأحقهم بالتقدير »(٧٧) .

أضف الى ذلك : « أن مقياس الرأى العام بالنسبة للأخلاق مقياس تعوزه العمومية والثبات اذا ما هو خير فى مكان أو زمان وبالنسبة لأقوام معينين قد لا يكون كذلك اذا اختلف الناس وتغير الزمان والمكان »(٧٨) .

٤ ـ الجزاء الالهى :

اذا كانت الأجزية الأرضية من عقابية وقانونية واجتماعية لايمكن أن تضمن العدالة التامة بين الناس جميعا ، فان الجزاء الذى أعده الله للمحسنين من ثواب ، وللمجرمين من عقاب فى الدنيا والآخرة يصلح مقوما لسلوك الناس وأخلاقهم لأن الله سبحانه وتعالى هو

---

(٧٧) الاسلام والمذاهب الأخلاقية ص ٢٠٦ .

(٧٨) المصدر السابق .

الخالق الرازق المالك أعلم بما يتناسب مع شئون خلقه • قال تعالى: « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٧٩) •

والخالق الرازق المالك العالم بشئون خلقه أسرع الحاسبين يحاسب على الغثميل والقطمير • قال تعالى : « ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين »(٨٠) •

وقال تعالى : « وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »(٨١) •

وقال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٨٢) •

★ هذا الجزاء الالهى ينقسم بحسب الوقت الى قسمين دنيوى وأخروى ، وبحسب النوع الى ثواب وعقاب :

١ ــ الجزاء الالهى فى العاجلة :

اذا كان الجزاء الكامل هو الجزاء الأخروى لكن جزاء الله لايقتصر على الأخرة فقط وانما قد يكون فى الدنيا مكافأة للمحسنين على احسانهم قال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»(٨٣)

---

(٧٩) سورة الملك ١٤ •
(٨٠) سورة الانعام ٦٢ •
(٨١) سورة الأنبياء ٤٧ •
(٨٢) سورة الزلزلة ٧ ، ٨ •
(٨٣) سورة النحل ٩٧ •

وقال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »(٨٤) .

وقال تعالى : « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم »(٨٥) .

وكما يكون الجزاء الالهى فى الدنيا مكافأة للمحسن فانه يكون أيضا عقابا للشىء قال تعالى : « مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا »(٨٦) .

والقرآن الكريم ينسب العقاب فى مواضع منه الى نقص فى الايمان بالله تبارك وتعالى وجحود فضله كما فى بعض الآيات السابقة وكما فى قوله تعالى : « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما أتاك الله الدار الأخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولاتبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين »(٨٧) .

وكما فى قول الله تعالى أيضا : « وضرب الله مثلا قرية كانت

---

(٨٤) سورة الاعراف ٩٦ .

(٨٥) سورة المائدة ٦٦ .

(٨٦) سورة نوح ٢٥ .

(٨٧) سورة القصص ٦٧ ، ٧٧ .

آمنـــة مطمئنة يأتيها رزقهـــا رغدا من كل مكان فكفـــرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(٨٨) .

وفى مواضع أخرى « يفسر القـــرآن الكريم ذلك التحـــول فى المصير لفرط الطمأنينة التى يحس بها الناس تجـــاه مستقبلهم ناسين قدرة الله »(٨٩) وفى ذلكم يقول الحق جل شأنه : « ودخل جنتـــه وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » .

إلى أن يقول الله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا »(٩٠).

وقد يكون العقاب بسبب عـــدم مقاومة الفساد لقول الرســـول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : « ما من رجل يكون فى قومه يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا الا أصابهم الله بعقـــاب من عنده قبل أن يموتوا » .

ولقد كانت سنة الله فى الأمم السابقة أنهم اذا فسدوا أهلـــكهم الله بعـــذاب من عنده ، قال تعـــالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية»(٩١) .

---

(٨٨) سورة النحـــل ١١٢ .

(٨٩) دستور الأخلاق فى القرآن ص ٣٤٧ .

(٩٠) ســورة الكهف ٣٥ ، ٤٢ .

(٩١) ســورة الحـاقة ٥ ، ٧ .

وقال تعالى : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعـدا »(٩٢) ٠

وقال تعالى : « وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الأخرين »(٩٣) ٠

وقال تعالى : « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنـاهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسـلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهـار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعـدهم قرنا أخرين »(٩٤) ٠

يقول الدكتور / دراز : « يستخدم القرآن الكريم بالتـوقف تاريخ الأمم القديمة العاصية حتى يكون لدى الظالمين الذى يخلفونهم على الأرض مثل أسلافهم متمثلا فى أذهانهم ولاسيما الكافرين على عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذين لم يكونوا خيرا ولا أشد قوة من الأقدمين « أكفـاركم خير من أولئكم »(٩٥) بل على العكس مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم »(٩٦) ٠

واذن فالخـونة جميعا عرضـة للمؤاخـذة تؤهلهم ذنوبهم لأن يعاقبوا بقسوة وليس فى طاقة أحد أن يؤمن العصاة من أن تحل بهم

---

(٩٢) سـورة الكهف ٥٩ ٠
(٩٣) سورة الصـافات ١٣٣ ــ ١٣٦ ٠
(٩٤) سورة الأنعـام ٦ ٠
(٩٥) سورة القمر ٤٣ ٠
(٩٦) سورة الأنعـام ٦ ٠

مصيبة فى البر أو فى البحر على حين غفلة .. أو تصيبهم قـارعة وهم نائمون أو وهم يلعبون..أو بأى وسيلة أخرى لا يعلمونها»(٩٧)

وفى ختام الكلام عن الجزاء الدنيوى يجب التنبيه على أن هناك نوعا من الجزاء الواقع على المقصرين فى الدنيا لا يتبعه جزاء أخروى فمن اقترف حدا من حدود الله كالزنا أو القذف ولقى جزاءه فى الدنيا باقامة الحد عليه فهو كفارة له لقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « الحـدود كفارات » .

ولقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحـديث الذى رواه البخارى عن عبادة ابن الصامت : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتـان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا ثم عوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه » .

وفى حديث المرأة الغامدية ــ الذى سبق ذكره ــ قال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لخالد عندما سبها وهو يقيم عليها الحد : « فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ».

لأن الله سبحانه أكرم من أن يعـذب من أقيم عليه الحـد فى الدنيـا والآخـرة .

---

(٩٧) سـورة النحل ١١٢ .

٣ ــ الجزاء الالهى فى الباقية :

لقد وعد الله تبارك وتعالى باثابة المحسن فى الآخرة ووعد الله لا يتخلف قال تعالى : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد»(٩٨)

وقد يضاعف الله الثواب الى ما شاء تبارك وتعالى ، قال تعالى: « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء »(٩٩) .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ــ فى حديث سابق ــ عن عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما يرويه عن ربه ــ عز وجل ــ قال : « ان الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بين بعد ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده ، حسنة كاملة وأن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثير .. » .

ومن حيث العقاب فان هناك ذنوبا لا يغفرها الله ــ عز وجل ــ كالشرك والكفر قال تعالى : «ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »(١٠٠) .

وقال جل شأنه : « ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم »(١٠١) .

---

(٩٨) سورة الزمر ٢٠ .

(٩٩) سورة البقرة ٢١٦ .

(١٠٠) سورة النساء ٤٨ .

(١٠١) سورة محمد ٣٤ .

وأيضا لا يغفر الله ــ عز وجل ــ الذنوب المتعلقة بالعباد وانما ترك كفارتها للعباد أنفسهم •

روى الامــام البخارى عن ابن هــريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليحلله منــه اليوم قبــل أن لا يكون دينــار ولا درهم ، ان كان له عمل صــالح أخذ منه بقــدر مظلمته وأن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه •

وهناك ذنوب يسميها القرآن الكريم بالصغائر أو باللمم أو السيئات هذه الذنوب وعد الله بغفرانها اذا ما اجتنبت الكبائر قال تعــالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم »(١٠٢) •

وقال تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة »(١٠٣) •

أما الكبائر ــ غــير الشرك بالله ــ التى لم يتب عنها صــاحبها وكانت متعلقة بحق الله تعالى ، فان الله سبحانه وتعالى قد يعاقب عليها بقدرها وقد يغفرها ان شاء قال تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »(١٠٤) •

وقال تعــالى : « قل يا عبــادى الذين أسرفوا على أنفســهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا »(١٠٥) •

---

(١٠٣) سورة النجم ٣٢ •
(١٠٢) سورة النساء ٣١ •
(١٠٤) سورة النساء ٣ •
(١٠٥) سورة الزمر ٥٣ •

وقال تعالى : « وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم »(١٠٦)

وأخرج الشيخان عن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « أتانى جبريل فبشرنى أن من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » .. قال أبو ذر : وان زنى وان سرق ، قال : « وان زنى وان سرق » وقد سأل أبو ذر ثلاثا ، فاجابه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمثل اجابته تلك وزاد فى الأخيرة : « على رغم أنف أبى ذر » .

ومدة هذا الجزاء الأخروى سواء أكان نعيما أو عذابا بينهما الله تعالى عندما ذكر جزاء السعداء والأشقياء فى قول الله تعالى :

« يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ »(١٠٧) .

والذى يخلد فى نعيم الجنة انما هو المؤمن الذى عمل الصالحات. قال تعالى : « ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى »(١٠٨) .

---

(١٠٦) سورة الرعد ٦ .

(١٠٧) سورة هود ١٠٥ ــ ١٠٨

(١٠٨) سورة طه ٧٥ ، ٧٦ .

والذى يخلد فى النار انما هو الكافر قال تعالى : « ومن يرتدد منكم عن دينـــه فيمت وهـــو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيـــا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(١٠٩) ٠

الجزاء الأخروى جسمانى وروحانى :

لما كان الانسان فى حياته الدنيا يعمل عمله بجسده وروحه معا كانت العدالة الالهية قضية أن الجزاء الأخروى انما يكون على الروح والجسد معا والآيات القرآنية فى هذا الشأن صريحة لا تقبل التأويل قال تعـــالى :

« هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصـــبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام الا من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغيـــة فيها عين جارية فيهـــا سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة »(١١٠) ٠

وقال تعالى : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العـــذاب ان الله كان عزيزا حكيمـــا »(١١١) ٠

وقال تعالى : « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصـــدعون

---

(١٠٩) سورة البقرة ٢١٧ ٠

(١١٠) سورة الغاشـــية ١ ــ ٦١ ٠

(١١١) ســـورة النســـاء ٥٦ ٠

عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون »(١١٢) .

وقال تعالى : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرها ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلو أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا »(١١٣) .

ومن هذا القبيل ومما يدل على أن الجزاء روحانى وجسمانى قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث الذى رواه أبو داود عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ « لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها » .

وجاء فى صحيح مسلم عن صهيب قوله : قرأ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله تعالى:«للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» ثم قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ «اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار

---

(١١٢) سورة الواقعة ١٥ ــ ٢٤ .

(١١٣) سورة الانسان ١٢ ــ ٢٢ .

النار نادى مناد يا أهل الجنـــة ان لكم موعدا عنـــد ربكم يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم تثقـــل موازيننا وتبيض وجـــوهنا وتدخلنا الجنة وتخرجنا من النـــار • قال : فيكشف لهم الحجـــاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليـــه ولا أقر لأعينهم » •

★ هذه النصوص تدل على أن النعيم الذى أعده الله للطـــائعين والعذاب الذى أعده للعاصين فى الآخرة كما أنه حسى فانه أيضـــا روحانى وهذه هى العدالة الالهية فى الجزاء •

★ وفى ختام الكلام عن الجزاء الالهى أود أن أبينه على أن هذا الجزاء يشمل الجزاء الأخلاقى أو الوجدانى لأن العقيدة الأســـلامية تجعل ضمير المؤمن بها يقظا حساسا نقيا يدفع صاحبه دائما الى العمل النافع الخير ويبتعد عن المفاسد والموبقات •

كما يشمل أيضا : الجزاء القانونى اذا كانت قواعد هذا القانون مبناها ومفادها من تعاليم الاسلام •

كما يشمل كذلك الجزاء الاجتماعى لأنه وكما سبق أن قلنـــا : ان الاسلام قد قرر عقوبات مختلفة بحسب الجرائم المرتكبة وأعطى الحق تنفيذ هذه العقوبات للمجتمع •

والحمد لله فى النهـــاية كما حمدناه فى البـــداية • وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

أ•د / محمد عبد الصبور هلال
أستاذ العقيدة والفلسفة